

في غار حراء

للاستاذ أحمد أمين

في غار حراء - وهو غار

يقرب من ثلاثة أمثار في

متريين في قمة جبل على يسار

الساكن من مكة إلى عرفة -

كان محمد وهو في سن

الأربعين قبيل الرسالة

يتجش

كان محمد في هذه الأيام

يألف العزلة - لم يكن

شيء أحب إليه من أن يخلو وحده ،

وكان يخرج إلى شعاب مكة وبطون أوديتها

وكان يقضى شهراً مجاوراً في غار حراء

هكذا تقول كتب السيرة

فيم كان يفكر؟ وما الذي كان يطلب؟ وما هذه الحالة

النفسية الجديدة التي استولت عليه؟ وما الذي جعله يهرب من

الناس وقد كان بهم أنيساً؟ يسعد بالوحدة ، ويسعى إلى العزلة ،

ولا يطمئن إلا إلى نفسه وتفكيره؟ وما الذي جعله يختار قمة

جبل يشرف منه على العالم حوله فتسبح نفسه في التفكير من غير

أن يحدها حد أو يقف بها عند غاية

ما هذه الأفكار التي كانت تملأ نفسه شهراً فلا يمل التفكير ،

ولعله كان يرد أن يبقى كذلك شهراً لولا واجب أهله وواجب

عشيرته ؟

ولكن هل لنا أن نتساءل هذه الأسئلة؟ وإذا سالناها فهل

في استطاعتنا أن نجيب عنها ؟

هل في استطاعة الجاهل أن يشرح أفكار الفيلسوف ؟ وهل

في مكنة من لا يحسن الرياضة أن يتخيل ما يفكر فيه الرياضي ؟

وهل للنملة أن تتساءل فيم يفكر الإنسان ؟

ولكن ماحيلة الإنسان وقد خلق طموحاً إلى أقصى حد

وأبعد غاية ، لم يقنع في باب المعرفة بشيء ، لم يقنع بالأرض

ففكر في السماء ، ولم يقنع بالظاهر ففكر في الحقائق ، بل لم يقنع

بآثار الله فأراد أن يعرف ذات الله ، وهيات هيات !

أكبر الظن أن ، محمداً ، في هذه الفترة ، وعلى الأخص في

غار حراء كان في حيرة ما أشدها من حيرة عبر الله عنها بقوله

« ووجدك ضالاً فهدى »

لقد عرف قومه فلم يعجبه دينهم ولا نوع حياتهم ولا كفرهم

ولا إيمانهم ولا أخلاقهم ؛ وسافر إلى الشام فرأى فيها مدينة

الرومان بما لها وأعمالها التجارية وترفها ونعيمها ودينها الرسمي

ومظاهره ، فلم يعجبه شيء من ذلك . لقد رآهم يعيشون كما يعيش

السماك يأكل بعضه بعضاً ، أو كما تعيش الذئاب والشيء في

حظيرة واحدة

رحمك الله ! ما هذه الحيرة الشاملة ؟ لا البدأة السذاجة

ونظامها أعجبه ، ولا الحضارة بترفها وزخارفها أعجبه . لم يعجبه

ما رأى من وثنية ، ولم يعجبه ما رأى من نصرانية . فأين الحق ؟

لقد اطمأن إلى شيء واحد وهو أن كل ما رأى ضلال ؛ وحيره

شيء واحد وهو سؤاله أين الهدى

حالة نفسية إذا تملكك نفساً مرهقة وشعوراً دقيقاً ملكك

نفسه وغمرت قلبه ؛ فخلاله أن يعتزل الناس لأنهم يحولون بينه

وبين تفكيره ويقطعون عليه سلسلة مشاعره

لقد جرب العزلة الساعة واليوم فوجدتها تفتح قلبه وتريح

نفسه ، ووجد فيها مفتاحاً لحيرته واتجاهاً لهدايته فبالغ فيها حتى

بلغت الشهر !

إن الناس وضوضاءهم ومناظر حياتهم يُضنونون نفسه فليهرب

منهم ، وإن منظر الطبيعة بجمالها وبهاثها ورونقها ليحيي نفسه

فليطمئن إليه . يتعاقب عليه في عزلة الليل والنهار فيجد في كل

غذاء نفسه : هذا الليل في أعلى الجبل بسكونه وهدوئه ، وسمائه

ونجومه ، والعالم حوله كله نائم ، وهو يناغي النجم ، ويشاطره الاضطراب والحيرة ، وهذا النهار - في أعلى الجبل أيضا - يشرف منه على العالم من تحته ، فيهزأ بالناس وسخافتهم هزوا مشوبا برحمة ، واستخفافا بمزوجا بعطف

كل ذلك وأكثر من ذلك كان يخفقه قلب محمد في غار حراء . لقد عرف الباطل ، ويريد أن يعرف الحق ؛ وأدرك الضلالة ويريد أن يدرك الهدى ؛ ولم يحب ما عليه الناس ، ولكن يريد أن يعرف ما ينبغي أن يكون عليه الناس .

هذا الظلام فإين النور ؟ وهذا العمى فإين البصر ؟ وهذا ما يجب ألا يكون ، فإين ما يجب أن يكون ؟

لقد طلب الحق - في غار حراء - بعد أن تهيأت نفسه ، واستعدت روحه ، وكلمت مشاعره ، وتوجت بالحيرة ، فكانت حيرته إرهابا لليقين ، وضلاله إرهابا للهدى

لم يطلب الحق من طريق الشعر ؛ فالشاعر يتخيل ثم يخال ، والشاعر يخلق ما لم يكن ولا يدرك ما يجب أن يكون ، والشاعر يغنى لنفسه - أولا - ولا باس أن يسمع الناس ، والشاعر يعيش في جو خيالي يخلقه بنفسه لنفسه ، وليس هذا من النبوة في قليل ولا كثير . ولم يطلب الحق من طريق الفلسفة أو العلم ، فكلاهما عبد المنطق ، عبد الالفاظ ، عبد الكتب ، عبد النصوص ؛ وأحسن أمرهما أنهما عبدان للعقل ، والعقل معيب مغرور مضل ؛ ولكل إنسان عقله ، ولكل إنسان تفكيره ، ولكل إنسان منطق وقضاياه

إنما طلب محمد الحق من طريق أسمى من ذلك كله ، وأرفع من ذلك كله : طلبه من طريق القلب ، وأعلن أنه لم يطلب علما ولكن طلب إيمانا ، فأعلن أنه أمى وغفر بأميته ، لأن القلب فوق اللغة ، وفوق الكتابة والقراءة ، وفوق العلم ، وفوق المنطق ؛ وهو القدر المشترك بين الناس ، لا يؤمن بحدود اللغة والجنس ، ولا يؤمن بحدود اللسان والألوان

من أجل هذا لم يذهب - وقد حار - إلى معلم يعلمه الكتاب ، ولا إلى مثقف بالكتب والأديان ، وإنما فضل على ذلك كله

غار حراء حيث الطبيعة على فطرتها مفتوحة أمام قلبه ، وحيث يتصل هو وهى بربها وربها

لقد اهتدى إلى الصراط المستقيم ، واتجه اتجاه الأنبياء ، لا اتجاه الشعراء والعلماء ، وتنبأ للأمر العظيم ، فلبعت في قلبه الشرارة الالهية ، كما يتنبأ السحاب فيلعب البرق

لقد أضاعت له هذه الشرارة الالهية كل شيء ، وكانت رسالته من جنس هدايته ؛ فرسالته أن يبعث الحياة في القلب ، ويبعث الضوء إلى النفس ، كالقمر يستمد نوره من الشمس ، ثم يعكس أشعته الجميلة على الناس ، يشترك في الاهتداء به العالم والجاهل ، والذكي والغبي ، والفيلسوف والعامى ، على اختلاف فيما بينهم ، لأن لديهم جميعا قدرا مشتركا من القلب صالحا للاهتداء

وليس العقول مسائرة في الرقى والانحطاط للقلوب ، فقد يكون مريض القلب صحيح العقل ، وقد يكون صحيح القلب مريض العقل ، ومقياس صحة الاستفادة من النبوة صحة القلب لا صحة العقل ، فلذلك آمن بلال قبل أن يؤمن عمرو بن العاص ، وأسليت جارية بنى مؤمل قبل أن يسلم أبو سفيان

كانت فترة غار حراء الحد الفاصل بين محمد بشرا ، ومحمد بشرا رسولا . لقد صعد إليه إنسانا حائرا ، وهبط منه إنسانا نيا ، مهتديا مطمئنا . صعد شاكا ، وهبط مؤمنا . لمع في قلبه النور الإلهي فاذا كل شيء حوله شفاف يراه بقلبه ويكشفه بنوره

نزل من الغار يدعو الناس أن يستضيئوا بضوئه ، وأن يحيوا قلبهم من حياة قلبه ، وأن يسمعوا لصوت الله على لسانه ، وأن يروا عظمة الله في كل أثر من آثاره

أى شهر كان هذا الشهر ؟ لو وزن به الزمان لوزنه ، وأى مكان غار حراء ؟ لو فاضل كل مكان لفضله

أحمد أمين